

مجلة القومي العربي (بيروت)، 1988.

المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين 1841-1901، بيروت 1987
المؤلف: الدكتور عبد الرؤوف سنو
الناشر: معهد الإنماء العربي، بيروت 1987، عدد الصفحات 454.
مراجعة طلال حاطوم

"المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين 1841 - 1901"، كتاب جديد للدكتور عبد الرؤوف سنو، في محاولة لتحليل المصالح الألمانية الثقافية والدينية والاقتصادية والسياسية في سوريا وفلسطين في إطار السياسة الألمانية في الشرق الأدنى وموقف ألمانيا من "المسألة الشرقية".

في مقدمة الكتاب، يتطرق المؤلف، د. سنو، إلى قضية تقاسم النفوذ بين الدول الأوروبية في سوريا وفلسطين لما لهما من أهمية استراتيجية تعود إلى موقعهما عند ملتقى قارتي آسيا وإفريقيا، وإلى دورهما التجاري السياسي كحلقة اتصال بين البحر المتوسط والشرق الأقصى، وأخيراً كونهما مهبط الأديان السماوية الكبرى، اليهودية والمسيحية والإسلام. وبناء لما تقدم، فقد تم وضعهما في القرن التاسع عشر على خريطة المصالح الأوروبية المتضاربة التي يعبر عنها "بالمسألة الشرقية". ولقد سعت الدول الكبرى، فرنسا وانكلترا والنمسا وروسيا، باكراً للحصول على امتيازات من "الرجل المريض" (تركيا) حولتها التدخل في شؤون السلطنة الداخلية. وقد تم الحصول على هذه الامتيازات بأسلوب "الدبلوماسية الهادئة" من جهة فرنسا وبريطانيا، وبأسلوب الصراع العسكري الطويل من جهة النمسا وروسيا. وكان للمعاهدات التي تبرم بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية أهميتها في حصول هذه الدول على امتيازات واسعة تتمحور كلها حول العلاقات التجارية وحماية المسيحيين في الشرق بظاهرها وتقاسم مناطق نفوذ سياسية واستعمارية بباطنها. كما كان لتضارب المصالح الأوروبية أثره في العلاقات بين الدول الأوروبية والسلطنة العثمانية، فقد كان موقف بريطانيا من الأزمة المصرية أيام محمد علي مجرد محاولة لإبعاد الأطماع الروسية عن الدولة العثمانية.

وفي تلك الأثناء، لم يكن لبروسيا أو ألمانيا أي دور في السلطنة العثمانية، لأن همّ بروسيا آنذاك كان محصوراً في الحصول على مركز مرموق في "المجموعة الأوروبية" من جهة، وبسبب ضعف صناعاتها وعدم قدرتها على حماية حتى أسطولها التجاري في البحر المتوسط من جهة أخرى. ولكن صلح أدرنة عام 1829 وحتى انتهاء الأزمة المصرية عام 1840، بدأ التحول الهام في السياسة البروسية من "المسألة الشرقية".

في الفصل الأول يتطرق المؤلف إلى الدوافع والظروف التي أدت إلى إنشاء "مطرائية القدس البروسية - الإنكليزية المشتركة"، التي كانت الأساس لنشاط الإرساليات البروسية في المنطقة. ورغم اصطدام المصالح البروسية والمصالح البريطانية - لأن بريطانيا كانت ترى في أن إنشاء إرسالية في منطقة نفوذها قد يؤدي إلى تقليص سيطرتها، وهذا ما عبر عنه موقف اللورد بالمرستون الذي كان ضد إنشاء هذا النوع من الإرساليات، متذرعاً بمرسوم "خطي شريف كلخاته" الذي صدر عام 1839 و"أزال الفوارق بين أهل الذمة والمسلمين" وأن السهر على تنفيذ هذا

المرسوم هو أفضل من تبني المقترحات البروسية. لكن إصرار ملك بروسيا على أن بريطانيا هي الحليف الطبيعي بسبب ضعف بروسيا آنذاك، جعل بريطانيا توافق على إنشاء "مطرانية القدس البروسية الإنكليزية المشتركة" وفقاً لنظام الكنيسة الإنكليكانية ومع احتفاظ رئيس أساقفة "مانتربوري" بسلطته الكنسية على كل رجال الدين البروتستانت، ورصدت المبالغ لتأمين انطلاقة ناجحة لهذه المطرانية. والدوافع الخلفية للملك البروسي في إنشاء المطرانية يُرجعها المؤلف إلى مسألة توطين اليهود في فلسطين بعد تنصيرهم في بروسيا لعدم القدرة على إزالة الحواجز النفسية بين اليهود والألمان. وازدهرت المطرانية حتى إنشاء دولة ألمانيا الموحدة عام 1871، وبروز ألمانيا كقوة موثرة في المجموعة الأوروبية، حيث ألغيت الاتفاقية من جانب واحد هو الجانب الألماني.

في الفصل الثاني، يعرض الكاتب لرواد التبشير الإنجيلي في الشرق الأدنى ونشاطات إرسالية الحجاج "إخوة سان كريشونا" في فلسطين، والتي كان لها التأثير الأكبر في رسم سياسة التبشير الألمانية في فلسطين عبر إنشاء المستوطنات التبشيرية في القدس على أسس صناعية استعمارية. ويربط الكاتب فشل مشروع شبنتلر الاستيطاني في فلسطين بتضارب مصالح "المجموعة الأوروبية" معه، وعدم القدرة على اختراق المجتمع الإسلامي.

الفصل الثالث من الكتاب يتكلم على دار الأيتام السورية التي أنشأها شنلر، المبشر الألماني في "إرسالية الحجاج لإخوة سان كريشونا" لرعاية الأيتام المسيحيين، خاصة من لبنان بعد الحرب الأهلية الطائفية فيه عام 1860. وقد ضمن الدار مؤسسة مهنية، إضافة إلى التعليم، وما لبثت أن توسعت إلى إنشاء مستوطنة زراعية عرفت باسم "بير سالم" أجرت من قبل الدولة العثمانية لمدة 40 عاماً في البداية ثم لمدة 99 عاماً. وتطورت الدار لتضم فروعاً مهنية وصناعية وزراعية تمكّنها من تمويل نفسها، بالإضافة إلى المساعدة في تأمين مهن لطلابها، فكان منهم المعلمون والحدادون والنجارون والفلاحون وغيرهم من أصحاب المهن الحرة.

الفصل الرابع يتناول نشاطات شماسات الكيزرزفرت في فلسطين وتأثيرهن في المرأة المسلمة ومحاولة تغريبها عبر دعوتها للتخلي عن حجابها. ومن نشاطات الشماسات مستشفى الكيزرزفرت الذي كان مخصصاً - تقريباً - لغير المسلمين، ومدرسة "طاليطا قومي" التي اختير اسمها خصيصاً للدلالة على مهام الشماسات في مساعدة المرأة العربية في النهوض الاجتماعي. ولكن الهدف الحقيقي، كان محاول تنصير الفتيات المسلمات اللواتي ينضممن إلى هذه المدرسة عبر نشر التعاليم الدينية المسيحية في صفوفهن وإبعادهن عن مجتمعاتهن الإسلامية.

الفصل الخامس، يتناول جمعية بيت المقدس، وهي كغيرها من المؤسسات التبشيرية كان همها محصوراً بالتعليم لأجل التبشير. وقد استطاعت هذه الجمعية توسيع نشاطها خارج القدس، باتجاه بيت لحم وضواحيها. ولكنها اضطرت إلى حصر نشاطها في أتباع الكنيسة الأرثوذكسية كون محاولاتها لكسب بعض المسلمين باءت بالفشل، وذلك بسبب تنبه السلطات العثمانية والقيادات الإسلامية إلى دروها وغاياتها التبشيرية. وقد أتاحت الخلافات الداخلية في جمعية الهيكل الألمانية لجمعية (بيت المقدس) رعاية المنشقين روحياً واجتماعياً كي تشجع غيرهم من الأبناء "الضالين" على الانضمام إليها. وما يلفت النظر، هو النزاع بين الجمعية وبين الراهب مولر حول تأسيس دار الأيتام وإدعاءات الجمعية بأحققتها وحدها في تمثيل القوى الإنجيلية في بيت لحم، وقد ضحت في سبيل ذلك بمشروع اجتماعي مفيد هو "دار أيتام مولر".

الفصل السادس من الكتاب، يتحدث عن المشاريع الألمانية البروتستانتية الأخرى في فلسطين، كالنزل البروسي، ومأوى المجنومين (معونة يسوع)، ومستشفى الأطفال (مؤسسة ماريا الخيرية).

الفصل السابع يتناول النشاطات البروتستانتية الألمانية في "لبنان"، ومنها: إنشاء دار للأيتام، ومؤسسة الأرامل، ومؤسسة الحساء المجاني، ورعاية المرضى في مدينة صيدا، والمستشفى البروسي في بيروت. وهنا يتطرق الكتاب إلى التعاون بين الكلية الإنجيلية السورية والمستشفى البروسي، ومن ثم الخلافات بينهما.

الفصل الثامن: يتناول نشاطات الكاثوليك الألمان في فلسطين بعد مجيئهم متأخرين إلى فلسطين بسبب النظرة القومية. وبرغم قلة عددهم، فقد كانت نشاطاتهم مؤثرة، فقد استطاعوا إقامة شبكة من النزل والمدارس والمستشفيات والمؤسسات في القدس والجليل الأعلى. كما أسسوا مستوطنات زراعية، برغم فشلهم في توطين عناصر كاثوليكية ألمانية واضطرارهم إلى توطين مسيحيين عرب في المستوطنات التي اقاموها.

الفصل التاسع يتناول العلاقات التجارية والاستيطانية قبل تأسيس الرايخ الألماني عام 1871. ويحتوي هذا الفصل على جداول تبين ضعف العلاقات التجارية مع السلطنة العثمانية في تلك الفترة، حيث لا تتجاوز الواحد من ألف من مجمل التجارة الألمانية الخارجية.

الفصل العاشر، يتطرق إلى المصالح التجارية والاقتصادية الألمانية في سوريا وفلسطين، ويحتوي أيضاً على جداول تبين مدى التطور في العلاقات خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وارتباط هذا التطور بازدياد الاهتمامات الألمانية التجارية بالشرق، وحصول الدولة العثمانية على دعم سياسي ألماني أكثر من السابق، وإلى إنشاء خطوط الملاحة الشرقية الألمانية بغية تعزيز العلاقات التجارية الألمانية في الشرق، وتأسيس بنك فلسطين الألماني في عام 1897، الذي أوجد أسس التعاون بين الإرساليات، وأظهر مدى الارتباط بين الاقتصاد والتبشير.

الفصل الحادي عشر، يتناول المصالح السياسية الألمانية في سوريا وفلسطين، وخلصته أن سياسة "الزحف نحو الشرق" كانت هي محور السياسة الألمانية الجديدة. وتُظهر معالجة مسألة الحماية في الشرق بوضوح كيفية استخدام الدين في خدمة السياسة. وأبرز ما في الفصل، تسجيل رحلة العاهل الألماني إلى الشرق باعتبارها تصميماً ألمانيا على ضرورة أن يكون لألمانيا كلمة نافذة وفاصلة في "المسألة الشرقية". وفي هذا الاتجاه، سارت ألمانيا في سياسة المحافظة على "الرجل المريض" مريضاً.

ينتهي الكتاب بخلاصة عامة تظهر ارتباط النزاع الديني بالسياسة واستخدام الدين كوسيلة للوصول إلى تحقيق الأهداف السياسية.

يحتوي الكتاب على ملحق وفهرس للأعلام، بالإضافة إلى المصادر والمراجع التي تبدو كثيرة جداً (حوالي نصف الكتاب).

ملاحظة، بالرغم من غنى الكتاب بالمراجع واعتماده الكثير من المصادر، يبقى أنه أغفل، وباعتراف المؤلف في التوطئة للكتاب ثلاث مسائل:

أ – مسألة مستوطنات جمعية الهيكل الألمانية في فلسطين.

ب- نشاطات الجمعيات الألمانية المنقبة عن الآثار.

ج- علاقة الدولة الألمانية بنشاكات اليهود الاستيطانية في فلسطين التي أخذت منحى جدياً بعد المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897.

إضافة إلى ذلك، كون الكتاب هو أحد المراجع التاريخية المهمة لهذه الحقبة (1841-1901)، كنا نتمنى على المؤلف، وهو الباحث الذي لا تقوته شاردة، أن يضيف إلى ملحقه – ولو بسيطاً – عن المعاهدات والاتفاقات التي ورد ذكرها في الكتاب ليكون الكتاب أكثر شمولية ولكي يستطيع القارئ تتبع أحداثه من دون العودة إلى أية مراجع أخرى.